إسهامات الجغرافيا العلمية في تأسيس أنساق الخطاب في أدب الرحلة العربي القديم

د/كمال بولعسل
جامعة الصديق بن يحي/ جيجل

تعالج هذه المداخلة ظاهرة فريدة من نوعها في التراث العربي القديم ، و المتمثلة في حركة تأسس المصطلح الجغرافي العلمي (في الجغرافيا الفلكية و الرياضية) و حركة سفره و هجرته إلى نصوص غير جغرافية، و يأتي على رأسها أدب الرحلة، حيث نرصد في تراثنا العربي حركة كثيفة للتفاعل المعرفي بين الجغرافيا العلمية الصرفة و نصوص أدب الرحلة، حيث أسهمت الآلة الاصطلاحية التي أسستها الجغرافيا الفلكية و الرياضية العربية في صياغة أهم الحساسيات الجمالية و الحفريات الأسلوبية و البنيوية لأدب الرحلة.

نقول أنها ظاهرة اصطلاحية فريدة من نوعها، لأن أدب الرحلة العربي القديم يمارسا عملا اصطلاحيا مقلوبا مخالفا ما دأبنا عليه في نظرية المصطلح؛ حيث تنشأ المصطلحات أو توضع بالانتقال من اللغة العامة، اللغة التواصلية ذات الدلالة المشاعة بين المتكلمين إلى اللغة القطاعية، لغة التخصص ذات الدلالة الخاصة التي لا يدركها إلا أهل ذلك التخصص.

لكن في الرحلات العربية القديمة يطالعنا قلب لهذه المعادلة الاصطلاحية، بحيث قامت نصوص الرحلة باستغلال اللغة القطاعية، لغة التخصص في الجغرافيا الفلكية و الرياضية و استعملت مصطلحاتها لصياغة أغلب المقولات الأسلوبية و الجمالية التي شكلت حوافز نصية تكررت تقريبا في كل عصور تراكم نصوص الرحلة العربية القديمة، على غرار مصطلح صورة الأرض، الأقاليم السبعة...الخ

في هذه المداخلة سنبرز صيرورة الإماهة الأسلوبية للمصطلح الجغرافي العربي، و الوقوف على الأصول الرحمية بينه و بين الأنساق الجمالية و الدلالية لأدب الرحلة العربي القديم.

أدب الرحلة العربي القديم: الأصول العلمية

في الحقيقة، لم ينشأ أدب الحلة العربي القديم منشأ أدبيا، بل ارتبط نشؤه بمجموعة من التخصصات العلمية، يأتي على رأسها الجغرافيا العلمية. لكن الجغرافيا لم تكن التخصص الوحيد

المسؤول عن تشكيل القيم البنيوية و الجمالية و الحفريات المعرفية لأدب الرحلة العربي القديم، لذلك ارتأينا أن نعرض هنا أهم الروافد العلمية التي أسهمت في الإنتاج التاريخي لهذا النص. لكن التركيز الأكبر سيكون على تأثير علم الجغرافيا، لأن هذا العلم زود نصوص الرحلة بأهم المصطلحات التي تحولت مع مرور الوقت إلى مقولات جمالية و معرفية صاغت أهم الأنساق الفكرية و الحساسيات الجمالية لعصور متلاحقة من الرحلات.

يشكل موضوع الجغرافيا في أدب الرحلة العربي القديم حالة فريدة من نوعها كونه نشأ نشوء جنينيا من رحم اجتمعت فيه مجموعة من الظروف التاريخية واللغوية والحضارية.

يمكن القول أن الفكر الجغرافي العربي المحمول في الفضاءات الجغرافية لنصوص الرحلة العربية، هو في الحقيقة امتزاج لمرجعيات علمية ثلاث هي:

1. كتب فضائل المدن والبلدان التي ظهرت في العصر الأموي تحت تأثير الموجهات الجغرافية / الدينية للأحاديث النبوية الشريفة.

2. كتب اللغويين في موضوع (معاني) الجغرافيا، أو ما كان يسمى برسائل المعاني والألفاظ(معاجم صغيرة). وقد ظهرت في نفس فترة ظهور كتب الفضائل وتماهت معها في كثير من الأحيان. وكما هو معلوم في تاريخ التأليف المعجمي العربي؛ " فكتب المعاني أو الموضوعات حلقة مفصلية في تاريخ التأليف العربي (المعجمي واللغوي خاصة) دأبت مع مجيء عصور التدوين العربية على جمع " المفردات تحت موضوع يربطها، وكان أكثر هذه المواضيع مما يقع تحت بصر العربي وسمعه"[1]. بمعنى أنها اتّبعت مسالك الموضوعات قوية الحضور. ولما كان المعطى الجغرافي وما يحويه من موجودات فيزيائية وطبيعية موضوعا ناتئا عند العرب، فقد كان استحواذه على رسائل المعاني أمرا مبررا.

3. تنمية الفكر الجغرافي وذلك بإسهامات الجغرافية الفلكية والرياضية والوصفية والكوزموغرافيا والمقترنة بشكل مباشر بأدب الرحلة.

4. بالإضافة إلى الملابسات التاريخية للحضارة العربية القديمة التي وسعت الأفق الجغرافي ومداركه بفعل الفتوحات الإسلامية، والحاجات الطارئة على هذا التوسع, كرسم طرق المسالك بين الأمم المفتوحة (الممالك) وطرق البريد والحجيج وحساب الجزية والخراج تبعا لأوضاع كل

مصر...الخ وبالتالي فإن الوعي بالامتداد الكوني عند العرب و" اتساع أفقهم الجغرافي كان نتيجة لاتساع نطاق الحضارة الإسلامية"(2).

وعن هذه الأصول الرحمية أخذ أدب الرحلة العربية القديم قيمه الموضوعية وأساليبه النصية، حيث تكلست فيه وترسبت قوالب جغرافية مكرورة بين الجغرافيين والرحالة على امتداد قرون طويلة حتى" غلب على الأدب العربي موقف معين من الإنتاج الأدبي للسلف يتفق أحيانا مع الفكرة المعاصرة للسرقة الأدبية"(3). وقد امتد هذا الأمر قرونا طويلة ابتداء من القرن الرابع للهجرة كما سوف نفحص في حينه. حين نجعلها في دوائر أسلوبية وموضوعية ، تتناسل من بعضها البعض كأنها أبناء من رحم أم واحدة، فكل فضاء جغرافي وما يشيده من أركان أسلوبية أو ما يكنزه في جوفه من مضامين دلالية، في الحقيقة هو إتباع لهذه المسالك العلمية واللغوية والحضارية التي عبرتها حضارة العرب قديما. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال استعراض هذه الأصول ومعالقتها مع نصوص الرحلة العربية القديمة.

رسائل المعاني وكتب الفضائل:

يعد هذا النمط من التدوين العربي القديم أصلا جنينيا للأدب الجغرافي العربي، حيث استحوذ على الكثير من الموضوعات الجغرافية بين " القرنين الثاني والثالث للهجرة. بدأ في الظهور نمط من الأدب الجغرافي يقدمه لغويون في الغالب. مهدوا لا شك لنمو جغرافية وصفية"(4). وضمن هذا الأصل نصادف أن كتب الرحلة العربية القديمة تتميز بميزة أسلوبية / موضوعية أساسية هي المنهج المعجمي في التأليف. وليس القصد هنا أننا نتحدث عن المعاجم الجغرافية الكبرى التي شاعت بعد القرن السابع للهجرة كمعجم ياقوت الحموي أو النويري أو القلقشندي التي قسمت إلى " ثمانية وعشرين كتابا على عدد حروف المعجم"(5) وإنما المقصود هنا غير ذلك، حيث نزع أغلب كتاب الرحلة العربية القديمة إلى توزيع المادة الجغرافية وفق منهج معجمي يأخذ مواد ترتيبه الأساسية من أسماء الأماكن، ثم ينبري لوصفها وتعريفها. ليس وفق ترتيبها المعجمي وإنما وفق انتمائها لإقليم جغرافي معين ضمن الأقاليم السبعة للأرض (توزيع الأقاليم السبعة فكرة مأخوذة من الجغرافيا الفكية وهي أيضا أصل رحمي لماهية الجغرافيا العربية،

سنتعرض لها في حينه) وكثيرا ما يصطبغ هذا الوصف، بالإضافة إلى النعوت الجغرافية المعروفة, بنعوت وصفات أخلاقية أو عقائدية.

يقول القزويني في وصفه لدمشق:

" وأهل دمشق أحسن الناس خَلقًا وخُلُقًا وزياً، وأميلهم إلى اللهو واللعب"(6)

ويقول في نيسبور:

" مدينة من مدن خرسان، ذات فضائل حسنة وعمارة، كثيرة الخيرات والفواكه والثمرات،جامعة لأنواع المسرات وعتبة الشرق"(7)

ويمضي على هذه الشاكلة يرتب معجميا مادته ويوالي أسماء الأماكن كأنها معجم للألفاظ. ثم يشرع في شرحها جغرافيا تارة، وتارة أخرى يضفي عليها طابع الفضائل وينزع في بعض الأحيان إلى الوصف الكوزموغرافي العام.

وقد دأب على هذا النموذج الكتابي في العرض للفضاء الجغرافي أغلب الجغرافيين والرحالة العرب. حتى أولئك الذين يمتلكون الهيكل السردي البنيوي لكتابة الرحلة وفق مسار الارتحال عند الجغرافيين الرحّالة، فكثيرا ما يوزعون رحلاتهم وفق هذا النموذج المعجمي كابن جبير أو الغرناطي وغيرهم كثير.

لكن ما أصل هذا المنهج الجغرافي في تشكيل النصوص الرحلية والجغرافية العربية القديمة؟

في غياب مناهج الكتابة والتأليف وأسس التدوين والوعي بأجناس وأنماط المعارف والفنون القولية، استقرت أغلب الكتب العربية التي دونت في عصر التدوين الأول وبعده على النسق المعجمي في التأليف الذي ظهر في أحضان العلوم اللغوية التي انبثقت عن حركة جمع اللغة وتدوينها لأجل غايات لغوية، دينية؛ كوضع علوم اللغة لصيانة العربية و من ثم صيانة النصوص المقدسة " من شوائب العجمة والافتعال"(8). التي فشت نتيجة الظروف الحضارية الطارئة التي صاحبت الفتوحات الإسلامية كدخول الأعاجم الذين أفسدوا العربية (لغويا)، وكان أيدانا بفساد الدين والنصوص المقدسة.

و بعيدا عن الخطط المنهجية في التدوين التي وضعها علم المعاجم العربي, لا نجد منهجا في الكتابة. وأغلب الكتب التي دونت بعيدا عن التأليف المعجمي وقعت في نموذج الاستطراد (كما هو سائد في فترة الجاحظ) حيث أن " القاعدة المتوازنة في التأليف الأدبي هي جمع خليط

من النوادر التي يربط بعضها ببعض رباط واه ضعيف وقد سادت هذه القاعدة جميع كتب الأدب الإسلامي"(9). وفي أحسن الأحوال كان التأليف يستند إلى التوزيع الموضوعي للأبواب الذي لا يقدم دائما مبررات منهجية؛ كمبدأ التطور العضوي لحركة الأفكار في الكتاب.

بينما فضّل بعض الكتاب الاستناد إلى فكرة التوزيع المعجمي كما هو حاصل في كتب الموسوعات ككتاب الفهرست لابن النديم. ولم ينج من هذا طبعا أدب الرحلة الذي استلهم طريقة التأليف المعجمي في توزيع مادة الكتاب. والذي بلغ أوجه مع ظهور الموسوعات الجغرافية الكبرى يأتي على رأسها معجم البلدان لياقوت الحموي، ثم تلاهما " أكبر موسوعات القرن الرابع عشر ميلادي هما موسوعتا النويري والعمري"(10).

الأمر لا يتعلق فقط بالتأثير المباشر في منهج كتب الرحلة الذي لعبته النماذج الأساسية للمعاجم العربية اللغوية الناضجة التي ظهرت في زمن مبكر والذي سبق النضج التام للتأليف الجغرافي العربي. بل يتعلق أيضا بانبثاق الفكر الجغرافي نفسه في الفكر العربي، حيث إن المعين الأول كان مع ازدهار تأليف رسائل المعاني، وهي كتب ذات صبغة معجمية كانت تدون " حسب الموضوعات، بعضها تناول الإنسان، وأدواته كخلق الإنسان، والأخبية والبيوت، والدارات، والأثواب، والدلو [...] وبعضها تناول الحيوانات والحشرات كالوحوش والنحل والجراد"(11) وقد برع في هذه الحلقة الأولى في التأليف المعجمي رواد وضعوا العلوم اللغوية العربية من أمثال:" النضر بن شميل، وقطرب، وأبوعبيدة، وأبو زيد، والأصمعي ، وأبو حاتم السجستاني"(12).

وقد غلب على كتب هؤلاء استقصاء الموجودات الحسية في شبه جزيرة العرب وذلك تحت تأثير " واقعية حسية مادية انبثقت من واقع حياتهم، فصبغت هذه الحياة حتى بعد أن أشرق فيهم دين جديد وبقيت فيهم هذه الواقعية الحسية زمنا طويلا "(13). و إتباعا لهذا المسلك المادي الواقعي نهلت كتب هؤلاء من المادة اللغوية الضخمة التي جمعت في عصر الرحلة إلى البوادي (الرحلة مرة أخرى) لجمع اللغة لفرض الاحتجاج بها واستنباط قواعد اللغة العربية. ليس غريبا إذن أن تظهر في هذا الوقت المبكر (عصر الاحتجاج؛ حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة) كتب ذات طابع جغرافي من أمثلة ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي:

" وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل الأدب، وهم أبو سعيد الأصمعي، ظَفرت به رواية لابن دريد عن عبد الرحمان عن عمه، وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني، له كتاب جزيرة العرب، وأبو الأشعث الكندي في جبال تهامة، وأبو سعيد السيرافي، بلغني أن له كتابا في جزيرة العرب، وأبو محمد الأسود الغُندجَاني، له كتاب في مياه العرب، وأبو زياد الكلابي [...] وهشام بن محمد الكلبي، وقفت له على كتاب سماه اشتقاق البلدان. وأبو القاسم الزمخشري، له كتاب لطيف في ذلك ..."(14)

بيد أن هذا النوع من الكتب "الجغرافية" التبس بوضع العلوم اللغوية أكثر من التباسه بالجغرافيا أو أدب الرحلة، حيث عُدّ " من ضوابط اللغوي ولوازمه وشواهد النحوي ودعائمه "(15). كما أنه " من العسير علينا أن نفترض أن مادة هذه الكتب قد تجاوزت نطاق الجزيرة العربية "(16). وموجوداتها الجغرافية. وتفسير هذا الانزواء في أماكن الجزيرة العربية بديهي؛ إذ أن المعلومات الجغرافية لم تبدأ بالتدفق بعد من الأصقاع المفتوحة، لحداثة عهد فتحها أو لأنَّ الأوضاع لم تستقر بها بعد. وهذا النمط في تدوين اللغة استنادا إلى الموضوع اللغوي. غذى و إلى قرون متأخرة من الحضارة العربية القديمة نظام ومناهج إدراج الجغرافيا في النصوص الرّحلية وفي الأدب الجغرافي العربي عامة.

علاوة على هذه المعطيات الحضارية، يضاف إلى هذا النمط من تأليف أن رسائل المعاني لم يكن همها دائما استقصاء المواضع الجغرافية من أجل الموضوع أو من أجل الموجهات اللغوية وإنما قد نجد أنها أفردت لإحصاء فضائل المدن "ومناقب المدن المختلفة استنادا إلى الأحاديث النبوية "(17), التي أثنى فيها الرسول (صلعم) على مدن وبقاع بعينها أو عرض لها سياق حديث ما"(18). وهو ما يسمى بكتب " الفضائل " ؛ وهي كتب شاعت تحت تأثير الوازع الديني، وكانت تتخذه كسند أصيل في وصف فضائل وشمائل الأماكن (خاصة المقدسة منها). لكنها سرعان ما تخلصت من هذه المركزية الدينية وأصبحت ترسل أحكاما أخلاقية وأنثروبولوجية عامة على الأماكن المختلفة. تكلس بعضها وأصبح مكرورا عند نسل الرّحالة تباعا، بحيث يصعب ردّها لشخص بعينه أو لمرجعية دينية أو عقائدية محددة.

يقول اليعقوبي في وصف بغداد:

" وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسُرة الأرض وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة، وكثرة مياه، وصحة هواء، ولأنه سَكَنَهَا من أصناف الناس، وأهل الأمصار والكور، وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الأفاق على أوطانهم، فليس من أهل بلد إلاّ ولهم فيها محلّة، ومتجر ومتصرف فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا"(19)

من المصطلح الجغرافي إلى جماليات أدب الرحلة

من أسباب التحوير النمطي، في الفضاء الجغرافي في أدب الرحلة العربي القديم، مجموعة المصطلحات و المفاهيم العلمية التي أرستها الجغرافيا الفلكية والرياضية العربية التي نشأت " في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلادي نتيجة اتصالهم بالعلوم الهندية أولا ثم اليونانية بعد ذلك"(20). خاصة كتب إقليدس وبطليميوس. فأفرزت امتزاجا متميزا بين الفكر الجغرافي لثلاثة حضارات كبرى سابقة على الحضارة العربية الإسلامية هي الحضارات الفارسية والهندية واليونانية. هذه الأخيرة كان لها التأثير الأكبر، خاصة بعد جهود المأمون وبيت الحكمة الذي أنشأه، حيث نقل التراث اليوناني عن الحضارة البيزنطية وتمت ترجمة الكثير من الفكر الجغرافي، خاصة بطليميوس وإقليدس. " لكن ما لبث هذا النمط من الأدب الجغرافي أن صار عربي الهوية بفضل فلكيين عرب أفذاذ من أمثال عبد الرحمان الصوفي (ت 376) ومحمد الفرابي (ت 339)" (21)

كما سار على درب التأصيل هذا جغرافيون آخرون منهم، الفزاري, الفرغاني، الخوارزمي، البتاني، و أبو زيد البلخي و ابن يونس...الخ. وهم الأعلام الأوائل للجغرافيا الفلكية والرياضية العربية.

غير أن السبق في هذا التوجه كان في الحقيقة للساسانيين المنجمين (الأراش)، وذلك لارتباط العباسيين، دون الأمويين بالحضارة الفارسية التي تبنت واحتضنت الثورة العباسية وأطلقت خروجها من ديار الساسانيين. بالإضافة إلى العلوم الفلكية للهند ويأتي على رأسها تأثير الكتاب الفلكي الشهير (السد هند).

إن ارتباط الفكر الجغرافي العربي بأصول خارجية، آتية من حضارات أخرى قيمة تاريخية شائعة بين المؤرخين وعلماء الحضارات. ولا أحد يماري فيها حيث كان العرب "متأثرين إلى درجة كبيرة (خاصة) بالمعرفة اليونانية الرومانية"(22). لكن السؤال المطروح هنا هو حول أصالة هذا

الفكر الجغرافي العربي, بمعنى هل أن التراث الجغرافي الذي استقر بين أيدينا اليوم في مصنفات الرحالة والجغرافيين تابع بالكلية لهذه الحضارات التي أخذ عنها؟

في الحقيقة إن هذا السؤال مهم بالنسبة للطرح الذي انطلقنا منه، وهو البحث في الجذور العائلية وصلات الدم التي تربط الفضاء الجغرافي كما نشأ تاريخيا في الفكر العربي القديم و أساليبه النصية و الدلالية داخل نصوص الرحلة العربية. لقد كان " العيب الأساسي للأدب الجغرافي العربي هو في خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيرا ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها بل وحتى صرف النظر عنها"(23). كما أنه يمكن القول بالنسبة إلينا اليوم، وقد اتصلت معالم التطور التصاعدي للأدب الجغرافي خاصة بعد العثور على مخطوطات جغرافية هامة كانت ضائعة في وقت سابق، أن التأثير الخارجي على الفكر الجغرافي العربي رغم قوته لا ينقص من أصالته شيء. وذلك لسبب وجيه هو أن المعارف الجغرافية الأجنبية، خاصة تلك التي خالطت الفكر الجغرافي العربي، لامسته وهو في حركة تطور طبيعي، حيث لم تكن سببا في انبثاقه، على اعتبار أن الأدب الجغرافي العربي -كما أسلفنا- انبثق من حركة التدوين اللغوي (رسائل المعاني وكتب الفضائل). بالإضافة إلى انتسابه إلى أصل عربي وهو علم الأنواء الذي دونت فيه كتب عربية كثيرة "التي اشتملت على أشتات من الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة ومنازل القمر،متبوعة بتعليقات لغوية وغير لغوية, وتمضي هذه السلسلة من الكتب متكاثرة خلال القرنيين الثالث والرابع للهجرة"(24). وظهور هذا العلم " يرجع إلى ما قبل الإسلام"(25) ثم واصل تطوره التصاعدي مع مجيء الإسلام وزاد توهجه مع مخالطته للنظريات الفلكية اليونانية والهندية والفارسية حتى أصبح "جزء من التراث الجغرافي العالمي"(26).

كما أن الفكر الجغرافي العربي لم يكن نسخه مقلدة عن النظريات القادمة من الخارج, بل تلبس بخصوصيات الظروف العربية, على اعتبار أن أغلب العلوم العربية التي ظهرت بعد مجيء الإسلام كلها وقفت لخدمة الأغراض الدينية والشعائرية وما ارتبط بها من حاجات حضارية، كحساب مسافات المسالك ورسمها وتحديد مواقع البلدان (الممالك), وحساب مواقيت مطالع القمر, وضبط المسافات و الاتجاهات بالنسبة للقبلة وحساب الجزية والخراج باعتبار خصوصيات كل مصر. وعليه فقد ازدهرت عند العرب الجهود الفلكية فأنشئت المراصد

(كمرصد فرغانة، بأذربيجان حاليا) وانتشر وضع "**الزيجات**"(27) وعلم الخرائط ، وامتزجت النظريات الأجنبية بالمعطيات الحضارية والدينية للبيئة العربية الإسلامية، فشكلت لنا عتبات جغرافية أساسية، مكررة في كتب الجغرافيا، سواء كانت رحلات جغرافية مدونة (أدب الرحلة) أو كتب جغرافية صرفة وُقفت لغايات علمية.

قبل الحديث عن أهم المصطلحات الجغرافية التي رشحت من التراث الجغرافي الفلكي والرياضي العربي، ننوه إلى أن الفكر الجغرافي الفلكي الذي ظهر في القرن الثاني للهجرة وازدهر بفعل علم الأنواء العربي والحاجات الدينية والحضارية لدولة الإسلام الناشئة , بالإضافة إلى استدعاء المصادر الخارجية بدأ في التراجع ابتداء من القرن4هـ ليفتح المجال لما يسمى بالجغرافيا الوصفية التي " تمثل دور النضج في الجغرافية العربية"(28). و التي تتولى مهمة أساسية هي محاولة رسم مسالك وممالك الأرض مع تقديم أوصاف متنوعة على مختلف الموجودات والظواهر الإنسانية والطبيعية السائدة فيها (أوصاف جغرافية، طبيعية، مناخية، رصد المخلوقات في البر والبحر، مع تحديد القيم الدينية والاجتماعية و الأنثروبولوجية والاقتصادية، والسياسية المرتبطة بمن يقطن تلك الممالك).

وكان ذلك يتم إمّا بالمخالطة المباشرة لهذه الممالك عن طريق الرحلة، أو بجمع المادة الجغرافية من كتب المعاصرين أو الأوائل, كما فعل مثلا ابن خُرداذبة في كتابه المسالك والممالك، الذي لم يكن رحالة، لكنه جمع المادة الجغرافية ما استطاع من مصادر مختلفة بالسماع أو الإطلاع على كتب الأوائل, وكما فعل أيضا معاصره اليعقوبي الذي كان رحالة على خلاف ابن خُرداذبة فتوزعت مادته الجغرافية بين المشاهدة "حيث كان حريصا على تدوين ملاحظات عن الجغرافية الطبيعية وعن المجتمعات التي تعرف إليها"(29)بالإضافة إلى السماع والنقل من الكتب.

وبناء على هذا، فلا غرو أن نقف على مصطلحات هامة للفكر الفلكي الجغرافي ، الذي تلا القرنيين الثاني و الثالث للهجرة، حيث اصطبغت كل الكتب الجغرافية بالمصطلحات و المفاهيم الجغرافية الكبرى التي ازدهرت في هذا الزمن المبكر.

ويأتي على رأس هذه المصطلحات ، الجهد الجغرافي الدائم عند أغلب الرحالة والجغرافيين العرب في كل العصور تقريبا " لرسم **صورة الأرض**" وهي فكرة جوهرية كانت سائدة في الفكر اليوناني خاصة في أعمال باطليميوس. كما يمكن أن نعثر عليها أيضا عند الجغرافيين العرب

الأوائل ، كالخوارزمي الذي سمى مصنفه الجغرافي بمنهج و طموح هذا الكتاب"صورة الأرض". " وهي الترجمة المعهودة في ذلك العصر للفظ «جغرافيا» اليوناني"(30) والمذهل في الأمر أننا نعثر عند اللغويين الأوائل زمن رسائل المعاني على هذا الطموح في رسم صورة الأرض والسماء، كما ورد في كتاب الأصمعي " رسالة في صفة الأرض و السماء", ولا أعتقد أن هناك ما يفسر هذا النزوع نحو الشمول والانسحاب الكلي على صورة الأرض في الجغرافية العربية سوى الحوافز المعرفية (التأملية) الجغرافية. خاصة ما ورد في النص القرآني الذي جاء بمقولات (آيات) جغرافية لم تكن سائدة في الفكر العربي خاصة عن الاتساع والامتداد, حيث زخر القرآن الكريم بمؤشرات جغرافية مزقت شرنقة جغرافية شبه جزيرة العربية ونبّهت لوجود عالم و أقوام خلف أسوار بلاد العرب بالإضافة إلى العالم الغيبي الذي طغى بفكرته عن تلاشي الحدود الزمنية و الجغرافية والتي ترجمتها خاصة فكرة الدنيا والآخرة: الجنة والنار، العرش، سدرة المنتهى، الإسراء و المعراج، عوالم الجن...الخ.

ولعل هذا التوجه العلمي واللغوي في رسم صورة الأرض، أُريد اختزاله بشكل مكثف وفعال من خلال ازدهار علم الخرائط (المصور الجغرافي عند أهل المشرق العربي و الطَبلة عند أهل المغرب) كما فعل الجغرافيون برسمهم لخارطة المأمون حيث صوروا " فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره و عامره وغامره ومساكن الأمم والمدن. وغير ذلك"(31).

لنتعرف على الطموح الجغرافي الشمولي في الانسحاب على الدنيا ورسم صورتها ، الذي أصبح قاسما مشتركا بين كل الرحالة والجغرافيين العرب (إلا قلة قليلة منهم اكتفى بجهة جغرافية بعينها أو إقليم فرد أو أنه انكفأ على مدينة من المدن، أو تعلق بجغرافية الأماكن المقدسة) نورد هذا النص لابن حوقل، وهو رحّالة وجغرافي من القرن الرابع الهجري يعلن عن طموح كتابه الموسوم بعنوان: "صورة الأرض" في مقدمة الكتاب:

" وقد عملت له كتابي هذا بصفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول و العرض، وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران، من جميع بلاد الإسلام، بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها, ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض لأن الصورة الهندية بالقواذيان، وإن كانت صحيحة فكثيرة التخليط, وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا و

شكلا يحكي وضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع, وما في أضعافها من المدن والأصقاع..." (32)

وهذه الفكرة في الاستعراض الشمولي لصورة الأرض مهمة جدا بالنسبة لكل دراسة نقدية تحاول الاقتراب من أساليب اشتغال الفضاء الجغرافي في أدب الرحلة، لأنها الموجه الأساسي لهذا الفضاء، الذي تتوزع فيه المكونات الأسلوبية و التيمات و الأنساق الموضوعية للرحلة، على اعتبار قيمتين مهيمنتين تتصارعان في أدب الرحلة وهما ، التماسك والتلاشي الذي تتميز به البنى السردية في الرحلات.

ترتبط بهذه المقولة الجغرافية، وبشكل مباشر مقولة محورية أيضا في أدب الرحلة العربي القديم، و لها نفس الأصل و هو الجغرافية الفلكية، وهي فكرة رسم صورة الأرض وفق توزيعها على سبعة أقاليم " وهذا التقسيم وضعه اليونان على أساس الطول النسبي للنهار والليل أو ميل الشمس على خط الاستواء (باليونانية klima و جمعها kimata) "(33).

هذا المبدأ الجغرافي أصبح بالنسبة للجغرافية العربية إجراء معرفيا **"مقدسا"** في قياس صورة العالم و حساب امتدادها وأطوالها. ومناخها وبالتالي توزيع المعمور منها والخالي من العمارة. كما أنه اتخذ في بداية اقتياده من أجل الجهود الجغرافية الفلكية والرياضية، أبعادا علمية صرفة كحساب ميل الشمس أو الطول النسبي لليل و النهار على خط الاستواء أو حساب خط الزوال المقترن بمصطلح " **قبة الأرض**" أو "**الأرين**"(34). وهذه النظرية تقوم على مبدأ افتراض خط طول لاحتساب الأطوال الجغرافية من الشرق و الغرب و الشمال و الجنوب انطلاقا من هذا لخط . وقد حدد الهنود الأرين بالخط الذي يعبر لانكا (جزيرة سرنديب أوسيلان عند العرب).

لكن فيما بعد، في عصور انحلال الصرامة العلمية للأدب الجغرافي، تمخضت عنه بعض المقولات الحفرية حول الجغرافية والتوزيع الحضاري للمعمور من الأرض، حيث ظن العرب مثلا أن المعمور من الأرض هو ربعها فقط و ذلك في النصف الشمالي منها وهو ما يعرف باسم " **الربع المعمور**" كما اعتنقوا الرأي القائل باستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة أو الشديدة البرودة.

وقد استقر هذا الاعتقاد في توزيع المعمور من الأرض وفق نظرية الأقاليم السبعة. حسب درجات الاعتدال، البرودة أو الحرارة في أغلب الرحلات العربية. وفي الحقيقة إن هذه المعتقدات الجغرافية/العمرانية، الحضارية، ترتبط أيضا في العمق بنظرية الكيوف الطبيعية عند اليونان والتي انتقلت ضمن ما انتقل من الإرث اليوناني إلى الفكر العربي. يقول المقدسي عن الإقليم السابع:

"وهو الذي ليس فيه عمارة كثيرة، فإنما هو في المشرق غياض وجبال تأوي إليها طوائف من الترك المتوحشين[...]وجميع ما يمتد العمران فيها وراءه إلى حدود عرض ست وستين درجة وربع وسدس. كما قلنا قبل.ثم ما بعد ذلك إلى تمام التسعين خراب،لا يسكن لأهل الأقاليم ولا يعيش فيه حيوان معهود وذلك لتراكم الثلوج عليه، وتراكب الضباب وبُعد الشمس عنه"(35).

كما أن توزيع المعمور من الأرض وفق نظرية الأقاليم السبعة أفضى إلى حل معضلة جغرافية/دينية وهي موضعة بعض الأقوام المذكورين في القرآن الكريم أو الشخصيات البارزة المذكورة فيه. حيث ساد الاعتقاد أن يأجوج ومأجوج سيكونون في الأصقاع الشمالية، بالإضافة إلى موضعة شخصيات الأنبياء دائما في الإقليم المعتدل وربطهم بأهم المنجزات والأبنية المعمارية.

يقول الغرناطي في هذا الشأن:

" ومن بناء مصر أيضا الأهرام التي بأعمال مصر وهي أهرام كثيرة [...] ويقال: إن هرمس المثلث بالحكمة وهو الذي تسميه العبرانيون أخنخ وهو إدريس عليه السلام استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان، فأمر ببناء الأهرام..." (36)

كما تقترن الحدود القصوى للعالم بجزر أسطورية (جزر الخالدات، جزائر السعادة ...)

"وإن حدً المغرب من حدود الجزائر الخالدات المسمات جزائر السعادة. وهن واغلات في البحر الأخضر المحيط المغربي المسمى أوقيانوس عشر درجات..." (37)

و ذلك على خلاف أغلب الرحّالة والجغرافيين الذين حددوا موقع هذه الجزر (الخالدات أو السعادة) إلى الشرق باعتبارها الحد النهائي للعالم من جهة الشرق.

وبهذا فقد شكلت هذه المصطلحات الجغرافية التي نهلت من الجغرافية الرياضية و الفلكية حاضنا خصبا لاشتغال المخيال العربي القديم في تصور جغرافية العالم و حضاراته و الأوضاع المدنية و العقائدية لقاطنيه، خاصة عندما يتعلق الأمر بالفضاءات الواقعة في الأقاليم المجهولة "المظلمة"، كالإقليم الممتد شمالا في فيافي الثلج ، أو الممتد جنوبا خلف خط الاستواء ، حيث

ساد الاعتقاد بغياب المعمورة، و هو ما انعكس على قيم الحكم على الآخر و أدى إلى تشكل النظام القيمي الذي كان سائدا في القرون الوسطى العربية, و الذي فُعّل خاصة للحكم على الشعوب الخارجة عن نطاق الحضارة العربية الإسلامية.

وهنا تكمن الفائدة الكبرى لهذه المصطلحات، بالنسبة لنا من أجل فحص الأنظمة الخفية و الأنساق المضمرة في حفريات التاريخ العربي القديم والإعلان عن مسالك تاريخية لم يستطع التاريخ (خاصة الرسمي منه) أن يطوقها لاعتبارات قومية أو دينية أو بكل بساطة، لافتقاره للإجراءات الفعالة لمتابعة أو التعامل مع المرونة و التسرب الكبيرين للحقائق التاريخية، خاصة لما يتعلق الأمر بالمرونة و المراوغة التي تتميز بها خطابات الرحلة العربية القديمة. وعلى هذا الأساس، سنحاول مقاربة الفضاء بالأدوات الوافرة للنقد، بغية استخراج حفريات النظم و الأنساق الحضارية المضمرة التي كانت تعتمل في خطابات الكتابة العربية القديمة.

الهوامش:

1. عبد الحميد الشلقاني. رواية اللغة. دار العارف بمصر. (ط ؟) 1971. ص 109
2. كراتشكوفسكي,أغناطيوس يوليانوفتش. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. تر:صلاح الدين عثمان هاشم. لجنة التأليف و الترجمة والنشر. القاهرة. 1963. ص 253
3. نفسه ص 24
4. عبد الفتاح محمد وهيبة. جغرافية المسعوديين النظرية والواقع (من الأدب الجغرافي في التراث العربي). مركز الدلتا للطباعة. الإسكندرية 1995. ص 13
5. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. معجم البلدان. دار صادر. بيروت 1977. المجلد1. ص 15
6. زكريا بن محمد بن محمود القزويني. آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر. لبنان. ط3. 2011. ص191
7. نفسه. ص 473
8. عبد الحميد الشلقاني. رواية اللغة. ص 102
9. حسن نافعة. كليفورد بوزورت. تراث الإسلام. ج2. ص09
10. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 406
11. عبد الحميد الشلقاني. رواية اللغة. ص132
12. نفسه. ص 133

13. علي سامي النشار. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف. القاهرة. ط9 (سنة ؟). ج1. ص30
14. ياقوت الحموي. معجم البلدان. ص11
15. نفسه. ص 09
16. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص 126
17. نفسه. ص 167
18. هناك محاولة معاصرة في هذا الشأن. أنظر: شوقي أبو خليل. أطلس الحديث النبوي الشريف. من الكتب الصحاح الستة (أقوام و أماكن). دار الفكر. دمشق. ط 4. 2005. وفي السياق نفسه، للمؤلف أيضا: أطلس القرآن (أماكن، أقوام، أعلام) دار الفكر. دمشق. ط2. 2003.
19. أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (اليعقوبي). كتاب البلدان. دار أحياء التراث العربي. لبنان. ط1. 1988. ص07
20. كراتشكوفسكي. تاريخ الأدب الجغرافي العربي. ص18
21. عبد الفتاح محمد وهيبة. جغرافية المسعودي. ص 13
22. نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، الشركة العلمية للكتاب، لبنان، 1987, ص17
23. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 23
24. عبد الفتاح محمد وهيبة، جغرافية المسعودي، ص 13
25. نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، ص 11
26. نفسه ، ص11
27. الزيجات: مفرد زيج وزيجة. أصلها من الفارسية "زيك" و يقصد به السدى الذي تنسج فيه اللحمة. ثم أطلق على الجداول العددية (الفلكية) لمشابهة خطوطها الرأسية لخيوط لحمة السدى. ينظر حول هذا الموضوع: كراتشكوفسكي. ص75
28. نقولا زيادة، الجغرافية و الرحلات عند العرب، ص 12
29. نفسه. ص19
30. كارتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص 99
31. نفسه ، ص86
32. أبو القاسم بن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبه الحياة للطباعة و النشر، لبنان، 1996، ص10
33. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص23

34. أصل نظرية "قبة الأرض" أو "الأرين" هندي، و أصلها "أجين" مكان بالهند الوسطى أين يقوم مرصد فلكي مشهود، ثم تحولت باللفظ العربي إلى "أرين"، ثم سقط حرف الزاي و استقرت مكانه الراء نتيجة لتشاكل الحروف في العربية و غياب نظام الرقش الذي أضيف في وقت لاحق.
35. شمس الدين أبي عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. دار إحياء التراث العربي. لبنان. ط2. 1998. ص ص32-33
36. أبو حامد الغرناطي. تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تح: قاسم وَهَبْ. دار السويدي للنشر والتوزيع. أبو ظبي. ط1. 2003. ص65
37. شمس الدين أبي عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. دار إحياء التراث العربي. لبنان. ط2. 1998. ص28